باعتبارها الأساس لتجاوز التناقض القومي العربي ــ اليهودي. وفيه، ايضا، بيَّن الكاتب كيف سعى الحزب (بالطبع ودائما، ضمن امكاناته) الى رفع مستوى الوعي الطبقي للعمال العرب وتنظيمهم، حتى يمكن تحقيق التقارب والالتحام بينهم وبين العمال اليهود. وبعد هذا، واهمّ منه، حلل اسباب وظواهر فشل هذه المحاولات. ولم يكتف د. الشريف، هنا، بظواهر الأمور، بل تعمقها؛ «فارتباط غالبية العمال اليهود في فلسطين بالمشروع البرجوازي الصهيوني لم يكن نابعاً من تأثير الأفكار القومية البرجوازية عليهم فحسب، بل كان نابعا، ايضا، من مصلحتهم المادية في نجاح هذا المشروع» (ص ٤٣).

وبعد تناوله للتجارب الناجحة في مسيرة الحزب حتى اواخر العشرينات، اوضح الكاتب، في الفصل الثالث، كيف انتهى الحزب الى وضع يده على خصوصية المسألة القومية في فلسطين، وبالتالي، الى تلمّس الطرح الصحيح لها؛ ونسب هذا الذي يعدّه انعطافا في مسيرة الحزب الى تأثير احداث آب (اغسطس) ١٩٢٩، اي الى ما عرف بثورة البراق، والى تأثير التدخل الحازم والمفيد للأممية الشيوعية لتصحيح سياسة الحزب الشيوعي الفلسطيني. ثم حلل الكاتب الظروف التي قادت الحزب الى تأكيد سياسة التعريب، التي سبق ان اكدت الأممية الشيوعية على ضرورتها، واعتبار المسألة الزراعية، بما هي مسألة دفاع الفلاح العربي عن ارضه المستهدفة، في صلب المسألة القومية، والتنبه الى اهمية الصلة بين المسألة القومية في فلسطين والمسألة القومية العربية الشاملة.

ولكن هذا الانعطاف، كما اظهر الفصل الرابع، لم ينطلق في طريق مستقيم، بل واجه المصاعب وتعرّض للانتكاس بين وقت وآخر، هذه المصاعب، ومنطلقاتها النظرية وأسبابها العملية، حللها الكاتب، وشرح كيف تأثر الموقف الشيوعي في فلسطين بموقف الأممية الشيوعية في السنوات الأولى من الثلاثينات، وحين «تخلت الأممية الشيوعية، في مؤتمرها السادس، عن شعار الجبهة المتحدة المعادية للامبريالية كاطار يجمع الشيوعيين والبرجوازيين الوطنيين في النضال المعادي للامبريالية، واتخذت، بالاستناد الى تجربة الثورة الصينية، موقفا 'انعزاليا' من البرجوازية الوطنية في البلدان المستعمرة والتابعة» (ص ٦٩). وقد وجدت هذه السياسة انعكاساتها على الموقف في فلسطين بتغليب الشيوعيين للطبقي على الوطني، كما يرى الدكتور الشريف، وادت الى تعثر سياسة التعريب، كما نجمت عنها اخطاء في تقييم الحزب لدور القيادة الوطنية العربية والى التشدد في وضعها على قدم المساواة مع القيادة الصهيونية، واعتبارهما، معا، العدو الطبقي للجماهير العربية واليهودية. وجرى هذا بالرغم من اصرار الأممية الشيوعية على انجاز عملية التعريب وانتقاداتها المتلاحقة للتلكؤ الذي حدث في هذا المجال.

وفي ظل هذا التعثر، كما اظهر الفصل الخامس من الكتاب، اخذ خطان يتمايزان، مع مواجهة الشيوعيين للمسائل العملية المطروحة امامهم، سواء على ساحة عمل الحزب التنظيمي نفسه ام على الساحة الوطنية بعامة. وفي ظله ايضا، وبموازاة الاختلافات الواقعة في وجهات النظر، وبتأثير احتدام التناقض القومي العربي ــ اليهودي مع تقدم المشروع الصهيوني وبروز مخاطره اكثر فأكثر، وبالرغم من يسارية الطروحات الطبقية، اخذت معالم الانقسام القومي داخل الحزب تتبلور. وحين عقدت الأممية الشيوعية مؤتمرها السابع، في ظل تزايد الخطر النازي، بعد استيلاء النازيين على السلطة، رسم المؤتمر سياسة جديدة تتجاوز «اليسارية الانعزالية» السابقة. وكان التيار الشيوعي الفلسطيني المستجيب لهذه السياسة الجديدة يضم بغالبيته الشيوعيين العرب، وكان، ايضا، قد افلح في تنصيب امين عام عربي للحزب. وهكذا تبنى الحزب الدعوة لجبهة شعبية متحدة معادية للامبريالية والصهيونية «ايذانا ببدء مرحلة جديدة في مسيرة الحركة الشيوعية في فلسطين» (ص ٨٨). وتطورت، في هذه المرحلة، مواقف الحزب من الحركة الوطنية الفلسطينية وقيادتها الاقطاعية ــ البرجوازية نحو مزيد من التفهم للدور الذي يلعبه الاقطاعيون والبرجوازيون العرب في النضال الوطني ضد الامبريالية البريطانية والصهيونية. وانعكس هذا التطور، خصوصا، في موقف الحزب ابان ثورة ١٩٣٦. لكن الحزب، وفق د. الشريف، كما تطرف في